منطقة توات ودورها في تجارة القوافل الصحراوية من القرن 9 إلى 13هـ/15 إلى 19م

الأستاذ الدكتور مبارك جعفري جامعة أحمد دراية ادرار . الجزائر

الدكتور عبو الطاهر جامعة أحمد دراية ادرار . الجزائر

مداخلة ألقيت في الملتقى الدولي السابع (التجارة والتجار عبر التاريخ) تنظيم الجمعية التونسية المتوسطية للدراسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية، بمدينة المنستير الجمهورية التونسية، أيام 11 . 12 . 13 ديسمبر 2014.

الملخص: تعد منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري من بين المناطق الصحراوية التي كان لها حضور قوي ومتميز في تجارة القوافل الصحراوية بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط الصحراء الكبرى وكونها منطقة عبور والتقاء بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، في منطقة جغرافية واسعة الأبعاد، مما أهلها أن تقوم بدور ريادي على مر العصور في هذا المجال وإلى غاية نهاية القرن التاسع عشر. و حيث كان الذهب، العبيد، والعاج، محور التجارة الدولية في تلك العصور وكان السودان الغربي من أهم مصادرها. وسنتناول من خلال هذه المداخلة الأهمية التجارية للمنطقة ولتجارة القوافل والتي لم تكن تنقل السلع والبضائع فحسب بل كانت لها أدوار على مختلف الأصعدة أهمها المساهمة في إنشاء علاقات ثقافية، اجتماعية و اقتصادية بين ضفتي الصحراء.

تمهيد: تعد منطقة توات بالجنوب الغربي الجزائري من بين المناطق الصحراوية التي كان لها حضور قوي ومتميز في تجارة القوافل الصحراوية بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط الصحراء الكبرى وكونها منطقة عبور والتقاء بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، في منطقة جغرافية واسعة الأبعاد، مما أهلها أن تقوم بدور ريادي في هذا المجال على مر العصور وإلى غاية نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. حيث كان الذهب، العبيد، العاج، القماش، التوابل محور التجارة الدولية في تلك العصور وكان السودان الغربي من أهم مصادر بعض هذه السلع. وسنتناول من

خلال هذه المداخلة الأهمية التجارية للمنطقة ولتجارة القوافل والتي لم تكن تنقل السلع والبضائع فحسب بل كانت لها أدوار على مختلف الأصعدة بحيث ساهمت في ربط علاقة اقتصادية واجتماعية بين ضفتي الصحراء، كما ساهمت في نشر الإسلام والثقافة العربية والإسلامية في السودان الغربي.

وتكمن أهمية الموضوع وأهدافه في كونه يسلط الضوء على الجانب الحضاري للمنطقة ويبرز دور القوافل التجارية في التواصل بين الشمال والجنوب، ودور التجار في انتشار الإسلام، كما يبرز لنا أهمية الحواضر الصحراوية مثل سجلماسة، ولاته، وادي مزاب، ورجلان، غدامس...وغيرها. من خلال توات كأنموذج. ودورها في فك العزلة عن أفريقيا جنوب الصحراء ونقل مختلف المعالم الحضارية والمعارف والعلوم، وكل ذلك تم بفضل القوافل التي كانت بمثابة الشريان الذي يمدها بالحياة. وهو يتناول الإشكال الآتي : ما هي مساهمة الواحات الصحراوية في تجارة القوافل الصحراوية في العصر الحديث توات كأنموذج.

ويكون تناولنا للموضوع وفق الخطة الآتية:

. تمهيد

. التعريف بتوات

. الأهمية التجارية لتوات

. عوامل ازدهار التجارة في المنطقة

. أهم الطرق التجارية

. أهم الأسواق والسلع والبضائع

. الآثار الثقافية، الاجتماعية والاقتصادية لتجارة القوافل

. خاتمة

أولا . تعريف موجز بمنطقة توات: تعد منطقة توات من أقدم المناطق عمارةً في الجنوب الجزائري وهو ما تؤكده الكثير من الآثار والمصادر والتي تذكر أن الفينيقيين

والرومان استخدموا طريق توات في علاقاتهم التجارية مع الجنوب[1]. ولهذا السبب استقر اليهود مبكرا بها[2]. وبعد دخول الإسلام ازدادت أهمية المنطقة، خاصة بعد أن أصبحت الطريق الرئيس للقوافل التجارية العابرة للصحراء والتي تربط الدولة الرستمية بالسودان الغربي، وأيضا لقوافل الحجيج القادمة من جنوب بلاد المغرب الأقصى ووسط الصحراء وبلاد التكرور. وحسب إحصاءات تعود لسنة 1319هـ/1901م بلغ عدد سكان توات حوالي (52099) نسمة موزعين على تكورارين (22889) نسمة، توات الوسطى (20388) نسمة، تيدكلت (8822) نسمة، وكانت تضم ثلاثمائة وتسعة عشر قصرا، و(1450185) نخلة[3].

ثانياً . الأهمية التجارية لتوات : بدأت الأهمية التجارية لتوات منذ عهود قديمة وهو ما تؤكده المصادر والشواهد الأثرية والأبحاث[4]، التي تثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن الصحراء الكبرى كانت دائماً محل اختراق تجاري منذ العهود القرطاجية والرومانية القديمة بالمغرب، وقد لعبت القبائل الأمازيغية في الواحات الصحراوية بما فيها توات دور الوسيط التجاري النشط بين بلاد السودان والمراكز التجارية في الشمال، ومن هذه المراكز كانت تسير القوافل محملة بالثياب، والمنسوجات، والملح، وبضائع أخرى، من جنوب أوربا، وغرب آسيا، إلى بلاد السودان، وكانت تعود بالذهب، والعبيد، والعاج، ومنتجات أخرى.

---

(1) . Camps. G : **Les Civilisations Préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara**, Doin, Paris, 1974, p. 219.

(2). Bernard Saffroy: **Chronique de Touat**, Centre Saharien, Ghardaïa, Algérie, 1994, p. 01.

(3). Fillias Achille : **Dictionnaire des Communes de l'Algérie**..., Alger, 1903, p.210

(4) للمزيد حول الموضوع ينظر: فريدة بن عزوز: **أبحاث تادِيوش لفيتسكي في فجر العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى، مجلة التاريخ العربي**، مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد20، خريف 2001م، ص17وما بعدها

ولم تتوقف الأهمية التجارية للمنطقة بعد دخول الإسلام، بل على العكس من ذلك تواصلت وبوتيرة أقوى، خاصة مع قيام الدولتين الصفرية بسجلماسة، والإباضية بتيهرت، وازدهار علاقاتهما التجارية مع السودان الغربي[5]، واستمرار قيام المماليك في الشمال والجنوب ووقوع المنطقة في مفترق الطرق بينهما. وزاد من أهميتها قيام دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي، وسقوط مملكة غانا، وبالتالي تراجع الطريق التجاري الصحراوي الغربي الرابط بين مراكش وغانا، والمعروف بطريق لمتونة، وتحول الأنظار إلى وسط الصحراء، خاصة بعد قيام مملكة مالي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وبروز مدينة تمبكتو كعاصمة تجارية في الضفة الجنوبية، مما أصبح لزاما على القوافل المتجهة جنوباً المرور بتوات.

ولابد من الإشارة بعد ذلك إلى الدور المبكر الذي لعبه التجار التواتيون، في التجارة داخل المنطقة وخارجها، حسب شهادة التاجر الجنوي انطونيو مالفانتي (Antonio Malfante)، هذا الدور الذي بدأ منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وكان أحد الأسباب التي جعلت اليهود يستقرون في المنطقة ويمارسون التجارة، لكن نشاطهم تراجع بشكل كبير بعد مجيء الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي لتوات سنة 891هـ/1488م[6]. ولم يكن الاهتمام بتوات مقتصرا على اليهود، بل تعداه إلى الأوربيين، الذين حاولوا اكتشاف القارة السمراء ابتداء من ق 9هـ/15م، والوصول إلى مصادر ذهب السودان انطلاقا من الصحراء عامةً، ومن توات

---

(5) محمد الطمار: **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 96.

(6) للمزيد حول الموضوع ينظر: أحمد بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981م، ج2، ص214 وما بعدها. وأيضا فوزي سعد الله: **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2004م، ص 67 وما بعدها.

خاصة، لأنها مكان تجتمع فيه القوافل القادمة من مختلف الجهات، وبالضبط مدينة تمنطيط والتي منها ينطلقون إلى بلاد السودان حسب ابن خلدون[7].

ويأتي في مقدمة الأوربيين التجار الإيطاليون، خاصة الجنويون منهم، وقد تمكن التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Antonio Malfante)، من الوصول إلى توات سنة850هـ/1447م، ثم العودة منها إلى جنوة، بعد أن أقام بها سنتين تقريبا، وورد على لسانه أن مضيفه في توات كان تاجراً مغربياً غنياً، عاش في بلاد السودان لمدة 14 سنة، وصرح له بأنه جمع ثروة تصل إلى مائة ألف دينار، أي حوالي 425 كلغ من الذهب[8]. لقد جمع مالفانتي (Malfante) معلومات كبيرة حول توات[9]، والمناطق القريبة منها عامة، وعن تجارة الذهب، والتجارة الصحراوية خاصة، وتمكن من إرسال رسالة من توات إلى محله التجاري في جنوة[10] وهذا دليلا على انتظام القوافل التجارية.

ولم يكن مالفانتي (Malfante) الوحيد من أشار إلى هاته الأهمية، بل حذا حذوه الرحالة الذين زاروا المنطقة بعده، ومنهم الجغرافي الشهير الحسن الوزان عندما زار إقليم توات عام 917هـ/1511م، وأثناء حديثه عن تينجورارين في كتابه "وصف أفريقيا" يصف سكانها بالأغنياء، وأنهم يذهبون بسلعهم بكثرة لبلاد السودان، ثم يذكر أنه في توات تجتمع القوافل من البربر مع تجار بلاد السودان، وتقام هناك أسواق كبيرة، وذكر لنا بعض السلع التي تباع هناك كاللحوم، وقال أن أسعارها مرتفعة، ولهذا تراهم يقول ؛ يشترون لحم الجمال والشحم المملح الذي يأتي به تجار فاس

---

(7)عبد الرحمان ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، 08 أجزاء، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان،2001م، ج7، ص77.

(8) محمد الشريف: **الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي (ق 8 هـ/ 14 م) ملاحظات حول دورها في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء**، **مجلة التاريخ العربي** : المرجع السابق، قسم 4، ص09

(9) نياني ج .ت وآخرون: **تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (إفريقيا من ق 12 إلى ق 16)** . اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م. ص671.

(10) نفسه، ص 620.

وتلمسان، وتحصل لهم منه أرباح كثيرة[11]. أما أبو سالم العياشي، فقد اتخذ طريق توات في سفره إلى الحج، رغم وجود طريق بنفس المستوى شمالا، اقرب من طريق توات، لكن فضل هذا الأخير مع حجيج بلاده لتوفره على الماء والكلأ ولكثرة الواحات به، مما يوفر محطات منتظمة في الطريق للراحة، وهي أمور أساسية للركب[12]. ويصف لنا العياشي الحياة التجارية بالمنطقة خلال القرن 11هـ /17م، وبالضبط سنة 1072هـ/1661م بالمزدهرة، وأن أهل تسابيت أحد قصور توات، أصحاب تجارة، كما أن بلاد توات هي مجمع القوافل من بلاد السودان الغربي، وتقام هناك أسواق كبيرة عند قدوم القوافل التجارية[13].

وفي القرن التاسع عشر ذكر بارث(Barth) أن توات بامتدادها الطبيعي إلى الشمال الغربي تافيلالت وسجلماسة تشكل الوسيط الطبيعي بين أراضيها الخصبة والشمال وعندما يتعلق الأمر بتمبكتو وولاته كل هذه المنطقة تشكل خزانا تجاريا كبيرا طالما كان التجار يعملون على إرساء علاقات تبادل بين مختلف هذه المراكز[14]. كما يذكر انه شاهد قافلة كبيرة من توات وهي تغادر تمبكتو في شهر محرم 1270هـ/أكتوبر سنة 1853[15]. ويقول الكولونيل ميرشر في تقرير بعنوان "مهمة غدامس" عن الموقع الاستراتيجي لتوات "لو القينا نظرة على خارطة أفريقيا نلاحظ

---

(11) الحسن بن محمد الوازان (ليون الإفريقي): **وصف إفريقيا**، ج2. ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2، ص 133، 134.

(12) مولاي بالحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية** للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 25.

(13) عبد الله بن محمد العياشي: **الرحلة العياشية 1661م – 1663م**. ج 1. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ج1، ص 80 وما بعدها.

(14) . Henri Barth(1821-1865) : voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855, Paris, Bruxelles, 1863, t4, p109.

(15) ibid, t4, p54.

أن الطريق الطبيعية للجزائر نحو بلاد السودان تمر عبر أرخبيل واحات توات سواء كان المقصد تمبكتو أو كانو أو أي مركز تجاري ببلاد الهوسا، وكان هذا الطريق كثيف الحركة منذ العصر الوسيط"[16]. وفي نفس السياق يقول بول سولايلي في تقرير رفعه إلى الغرفة التجارية الفرنسية بالجزائر سنة 1874م عن الموقع المتميز لواحات توات خاصة عين صالح لو نقيس المسافة بين توات الكبرى والمراكز التجارية بالمناطق الرئيسة الاربع نجدها متساوية إلى حد يثير الاستغراب، حيث المسافة بينها وبين الجزائر إلى الشمال تساوي المسافة بينها وبين تمبكتو إلى الجنوب والمسافة بينها وبين طرابلس إلى الشرق تساوي المسافة بينها وبين موقادور إلى الغرب[17]، وبالتالي فإن هذا الموقع ساهم إلى حد كبير في أن تكون منطقة توات ليس مركزا تجاريا فحسب بل نقطة عبور هامة للقوافل التجارية العابرة الصحراء في الاتجاهين.

ثالثاً . عوامل ازدهار تجارة القوافل بتوات : هناك عوامل كثيرة ساهمت في ازدهار التجارة بتوات يمكن أن نذكر منها:

1 . موقعها الإستراتيجي الذي يتوسط الصحراء، ويربطها بمختلف الجهات الشمال بالجنوب والشرق بالغرب.

2 . وجود الماء في منطقة جدبه، محاطة بالعروق والكثبان الرملية، مما يجعل إمكانية تجاوزها من طرف القوافل من دون هذه الخاصية أمراً مستحيلا.

3 . كثرة قصورها، وامتدادها الجغرافي (أكثر من أربعة عشر يوما تقريباً المسافة بين أبعادها)، مما يوفر للتجار والحجيج بيئة متصلة يسهل فيها الحصول على الماء والزاد، وسط صحراء قاحلة.

4 . وجود عدد كبير من السكان وتنوع أجناسهم، مما يوفر للتجار سوقاً استهلاكية واسعةً ومربحة.

([16]) Paul Solleillet, D'Alger à L' Oasis d'In-Salah, Rapport présenté à la chambre de commerce d' Alger, Jourdan, Alger,1875, p14, 15.

([17]) ibid, p.14

5 . توفرها على الأمن، خاصة بالنسبة للأجانب، اللذين يجدون فيها كل احترام وعناية، وخير دليل على ذلك؛ وصول التاجر الجنوي لها وبقائه بها سنتين، ثم عودته منها سالماً دون أن يلحق به أذى، ويؤكد هذا الطرح الحسن الوزان بقوله عن أهل توات: "**وكثيرا ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون، إلا أنهم لا يمسون الغرباء بسوء**"[18].

6 . وجود عدد كبير من التجار وانتشار النشاط التجاري بين السكان وتذكر بعض المصادر أنه كان في تمبكتو في سنة 1287هـ/1870م حوالي ستمائة تاجر تواتي مقابل خمسة وعشرين تاجر من تافيلالت، وكان أغلب سكان أقبلي من الرجال قد سافروا إلى السودان مرة واحدة على الأقل[19].

7 . وجود شبكة من الطرق التجارية تربط المنطقة بباقي المناطق، ومن مختلف الجهات، وغالبيتها عبارة عن مجاري الأودية الجافة[20]، التي بها ينابيع توفر الماء لسالكي الصحراء، وتمتاز بمتانة تربتها، مما يساعد على السير، وتضم معالم يسهل أتباعها، كما تنموا على جنابتها الأعشاب والحشائش، مما يوفر للإبل غذاءها.

رابعاً . أهم الطرق التجارية التي ربطت توات بمختلف الجهات : اتصلت توات مع المراكز التجارية في الشمال والجنوب والشرق والغرب بمجموعة من الطرق منها:

أ . نحو الجنوب :

---

(18) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 134.

(19) محمد أعفيف، **مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب الغربي توات في القرن 19**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، إشراف الأستاذ حرمان عياش، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1982، ص 143.

(20) فرج محمود فرج: **إقليم توات خلال القرنين 18و19م**، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. بدون تاريخ، ص 78.

1 . توات تمبكتو : ينطلق هذا الطريق من رقان نحو حاسي حسده، ثم حاسي البوز، ثم المالح، ثم رقلة، ثم بير ذهب، ثم تنصر، ثم صبطي، ثم طرفية، ثم ندقوير، ثم تليق، ثم تاودسني، وصولا إلى تمبكتو[21].

2 . طريق توات قْاو : ينطلق من أقبلي بتوات، ثم مراقن، ثم والن، ثم تنزروفت، ثم البرج، ثم حاسي باكتليس، ثم تساليت، ثم أقاهوك، ثم أنافيف، ثم تبرشات، ثم تبنكورت، ثم تنقارا، ثم بوراغن، وصولا إلى قْاو. وفي والن يخرج منه طريق فرعي آخر نحو الأربعمائة، ثم تجنوت، ثم أشوراد شبي، ثم أنافيس، ثم أماهور[22].

3 . طريق توات تمبكتو عبر أقبلي : ازدهر خلال القرن التاسع عشر، وتحدثت عنه المصادر بشيء من التفصيل، ينطلق من أقبلي، وأول محطة تأتي بعد مرحلتين وهي (تين تني)، ثاني محطة هي (والن)، وبعد أيام تدخل القافلة صحراء تنزروفت، وهي منطقة قاحلة جرداء منبسطة، تأتي بعدها محطة ثالثة وهي (انغانان)، وبعد ستة مراحل تصل القافلة إلى محطة (لمبروك)، والمحطة الخامسة تأتي بعد ثلاث مراحل وهي (المامون)، وبعد ثلاثة مراحل تأتي محطة (بوجبيهة)، وبعد ثلاثة مراحل تأتي أروان، وهي محطة رئيسة للقوافل، تأتي بعدها محطة (واغوزان)، وبعد ثلاث مراحل تصل القافلة إلى تمبكتو، ومجموع الطريق أربعة وثلاثين مرحلة، ويخرج منه طريق فرعي من أقبلي إلى (عين بير) اربعة مراحل، ومنها إلى (بير موسى كوم) ثمانية مراحل، ومنها إلى (حاسي توابار) أربعة مراحل، ومنها إلى (حاسي موسى) خمسة مراحل، ومنها إلى لمبروك ستة مراحل، ويلتقي هناك بالطريق الأول[23].

---

(21) محمد حوتيه : **توات والقوافل التجارية، طريق القوافل:** منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، مطابع عمار قرفي، باتنة الجزائر،2001م، ص 35.

(22) نفسه، ص 36.

([23]) James Richardson (1806-1851) : **Routes du Sahara Itinéraire dans l'intérieur du Grand Désert d'Afrique**, Imprimerie de L. Martinet, Paris, 1850, pp 8-10.

4 . طريق عين صالح تمبكتو : أهم محطاته عين صالح اينغر(مرحلة)، اينغر تيط (مرحلة)، تيط أقبلي(مرحلة)، اقبلي زاوية حينون (مرحلة)، زاوية حينون المالح (مرحلة)، المالح إلى الشبلي(عين) (مرحلة)، الشبلي تيمادنيين وهي آخر نقطة في توات (مرحلة)، تيمادنيين حاسي تيابين (مرحلة)، حاسي تيابين والن (ثلاث مراحل)، والن عين رنان(صحراء تنزروفت) (سبعة مراحل)، عين رنان لمبروك (سبعة مراحل)، لمبروك المامون (مرحلتين)، المامون بوجبيهة (ثلاث مراحل)، بوجبيهة تمبكتو (ثلاث مراحل)، ومجموع مراحل هذا الطريق ثلاثة وثلاثين مرحلة[24]. ومن المامون تذهب بعض القوافل لأروان ومنها إلى تمبكتو[25].

ب . نحو الشمال:

1. توات ← ايقلي ← فيقيق ← عين الصفراء ← مشرية ← الخيثر ← ارزيو ← وهران.

2 . توات ← أقبلي ← عين صالح ←ميزاب ←ا لأغواط ← المدية ← البليدة ← الجزائر وفي مزاب يلتقي مع طريق ورقلة ← توقرت ← بسكرة ← باتنة ← قسنطينة ← سكيكدة. ولهذا الطريق فرعا آخر، ينطلق من توات ← تيميمون ← ميزاب وهنا يلتقي بالطريق الأول، ومنه إلى مدينة الجزائر[26]، وقد سلكه الشيخ عبد الرحمان بن إدريس بن عمر التنيلاني، في رحلته نحو مدينة الجزائر سنة1231هـ/ 1815م[27].

3 . توات ← تبلكوزة ← المنقب ← الأبيض سيد الشيخ ← البيض ←الخيثر وفيها يلتقي بالطريق الأول.

ج . نحو الغرب :

([24]) Eugène Hennebert : op.cit., p.277.

([25]) ibid, p.235.

(26) مياسي إبراهيم : **الاهتمام الفرنسي بالصحراء**، طريق القوافل ، المرجع السابق، ص86.

(27) عبد الرحمان بن إدريس التنيلاني: **رحلة إلى الجزائر**، مخطوط، د ر، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر.

1) توات ← ايقلي ← ام دريبينة ← قصبة المخزن ← مكناس ← فاس.

2) توات ← ايقلي ← فيقيق ← سجلماسة ← تافيلالت ← فاس.

3) توات ← تبلبالت ← قصبة تنزولين ← وادي درعة ← مراكش.

د . نحو الشرق[28] :

1 . توات ←ارسلمن ← الزريبة ← لمسقم ← البيد ← تنغين ← غدامس ← طرابلس ← برقة.

2 . توات ← اغستن ← غزي وليد مسعود ← ارسلمن. وهنا يلتقي بالطريق الأول باتجاه غدامس.

3. توات ← تنجقن ← أمسارح ← غاريس ← أمغيدة ← انتفوسن ← خلغام ← تارسيت ← أركنيرا ← عيدو ← فايوت ← غات ← فزان.

ومن الطرق الرئيسة التي تمر بالمنطقة، طريق الحج، يربط هذا الطريق فاس وتافيلالت، مع توات، وهناك يلتقي مع طريق الحجاج القادمين من السودان الغربي، ومنها إلى: عين صالح، غدامس، برقة، الإسكندرية، ثم البقاع المقدسة، أو تسابيت، ثم أوقروت، ثم لمنيعة، ثم مزاب، ثم ورقلة، ومنها إلى غدامس، وتستغرق هذه الرحلة سنة كاملة.

و يمكن ملاحظة أن توات تتوسط تقريبا أربعة مدن برزت في التجارة الصحراوية وهي:

1 . غدامس شرقاً، وتبلغ المسافة بينها وبين توات سبعة وعشرين يوما تقريباً.

2 . تمبكتو جنوباً، وبينها وبين توات تسعة وعشرين يوما من أقبلي.

3 . فاس غرباً، وبينها وبين توات اثنان وثلاثون يوماً[29].

---

(28) حسين جاجوا: **دور غدامس التجاري ما بين طرابلس والسودان الأوسط والغربي خلال1850/1881م**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف د عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر ،1981م، ص52 وما بعدها.

4 . مدينة الجزائر شمالاً، وبينها وبين توات ثلاثون يوما.

مع العلم أن المسافة بين تبلكوزة شمال توات وعين صالح جنوبها أربعة عشر يوما تقريبا.

خامساً . الأسواق والسلع والبضائع: اشتهرت في توات أسواق كثيرة لعل اهمها سوق تمنطيط التي اشار اليها الكثير من المؤرخين وفي مقدمتهم ابن خلدون لكون الاخيرة عاصمة توات لقرون، وسوق بودة التي ذكرها ابن بطوطة، وسوق تيكورارين، وعين صالح، وتيمي، ومن الاسواق ايضا سوق تسابيت التي ذكرها العياشي وسوق اوقروت[30]، ويقول دوماس(Daumas) أن في توات أسواقاً متعددة خصص كل واحد منها لبيع سلعة معينة، فهناك سوقا للسمن، وسوقا للسراجين، وسوقا للقماش، وسوقا للعبيد، وسوقا للعطارين، وسوقا للأغذية، وسوق للتبغ، وسوقا للماشية[31].

وبالنسبة للسلع فقد ذكر العياشي ان في توات سلع كثيرة مثل: الخيل، الملابس، الحرير. كما أن الحجاج المغاربة يشترون جميع ما يحتاجون إليه من التمر والذهب من توات، لآن أثمانها رخيصة، مقارنة مع المغرب، وكذلك سعر الصرف، فعدد المثقال فيها أربع وعشرون موزونة[32]. ويقول لانز أن القوافل التواتية في تمبكتو كانت تحضر معها التمر والتبغ وتعود محملة بالذهب، والعبيد، وريش النعام، والعاج[33]. ويقول رولفس(Rohlfs)، أن القوافل التواتية القادمة من السودان

---

(29) نفسه، ص58

(30) العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 80 وما بعدها

(31) Cid–El– Hadj–Abd al–Kader–Ben–Abou–Bekr at–Touaty : **Le Sahara et le Soudan Documents Historiques et Géographiques**, traduits à l'Arabe par M.L'Abbé Bargès, Paris, 1853, p 15. Daumas Eugène : op. cit, p.67.

(32) العياشي: المصدر السابق، ج1، ص 80.

(33) Oskar Lenz (1848–1925) : Tombouctou Voyage au Maroc au Sahara et Soudan, Librairie Hachette, Paris, 1887, p.167. Henri Barth : 1863, t4, p106.

الغربي عادة ما تعود في كل مرة ومعها بين ستمائة إلى ألف وسبعمائة من العبيد، وحوالي خمسين رطلا من التبر، وكميات من ريش النعام والعاج[34]. ومن هنا يمكن القول ان اهم السلع التي كانت توفرها توات هي التمر والتبغ اما السلع المستوردة من الاسواق المجاورة في الشمال أهمها : العطور، القماش، البارود، المخطوطات...الخ، ومن الجنوب الذهب، العبيد، العاج، ريش النعام.

سادسا . انعكاسات تجارة القوافل الاجتماعية والثقافية: لقد ساهمت تجارة القوافل وعلى مختلف الأصعدة في عمارة وتطور منطقة توات عبر مختلف العصور، وجعلت منها حاضرة من الحواضر الصحراوية الكبرى، ففي الجانب الاقتصادي أدى وجود العبيد بإعداد كبيرة إلى وفرة اليد العاملة حيث كانوا يستخدمون في حفر الفقاقير والتي تعد عصب الحياة في منطقة جافة وحارة، وبالفقاقير ازدهر اقتصاد الكفاف وتوسعت الواحات، ونما اقتصاد المنطقة. وفي الجانب الاجتماعي أدت تجارة القوافل إلى انتقال الكثير من الأفراد والجماعات إلى توات والاستقرار بها والعكس صحيح، وانتقلت معها نتيجة ذلك الكثير من العادات والتقاليد، وفي الجانب الثقافي أسهمت تجارة القوافل في الحركة العلمية داخل المنطقة وخارجها حيث عادة ما تكون القافلة محملة بالكتب والمخطوطات التي راجت تجارتها في ذلك العصر، بفضل ما كانت تدره من أرباح تفوق أرباح الكثير من السلع[35]، بالإضافة إلى تمتع التجار بثقافة علمية واسعة، أهلتهم للقيام بدور علمي وثقافي إلى جانب نشاطهم التجاري، أو ما يعرف بظاهرة الفقهاء التجار، الذين آثروا العمل بالتجارة لما كانت تدره من أرباح، مقارنة بالتدريس والقضاء، واستمر نشاطهم العلمي الذي واصلوا ممارسته انطلاقا من التجارة، وفاق تأثيرهم العلمي في بعض الأحيان تأثير من تفرغوا للعلم. وقد تعرف الأفارقة على كثير من التجار التواتيين الفقهاء مثل : الشيخ محمد فتحا ابن أبي محمد الأمريني التواتي (ت1008هـ/1600م)، الذي دَرَسَ في فاس، ورفض منصب القضاء بعد أن قال مقولته المشهورة: "**لأن يحاسبني الله على ألف قنطار،**

([34]) Deporter : op.cit, p.42 .

(35) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 167

أيسر علي من أن يسألني عن قضية فاصلة بين اثنين"[36]. كما كان لبعض التجار التواتيين زوايا ومدارس قاموا بإنشائها، أو كانوا طرقيين ينفقون بسخاء على طريقتهم مثل: الشيخ سيدي علي بن حنيني(ت1115هـ/1703م) صاحب الزاوية المشهورة بزاقلوا، والذي كان يملك قافلة وصل تعدادها تسعمائة جمل تتاجر في بلاد السودان وكانت أرباحها تنفق على طلبة الزاوية وعابري السبيل في توات وغيرها[37].

كما ساهمت تجارة القوافل في ربط وشائج الاتصال بين توات ومختلف المناطق، خاصة السودان الغربي، وأصبح التجار التواتيون معرفون في الأسواق ولهم أحياء خاصة بهم في مدن السودان الغربي، ويبرز هذا الرسالة التي بعثها سلطان برنو (كانديى ولد جامشاش)، إلى المشايخ الكونتيين وإلى كل إخوانهم ساكني توات، والرسالة وثيقة مخطوطة عثر عليها الضابط مارتان في توات وهي بتاريخ843هـ/ 1440م، يقول فيها: "**ومما يثير الدهشة . يقول لهم . كيف تركتم عادة أبائكم وعزفتم عن القدوم إلى بلدنا؟ فمنذ المعاهدة مع السلطان سيدنا سقرا لم تعودوا لبلدنا. ومن المؤكد . قسما بالله أني لم اسبب لكم ولن أتسبب في أي نوع من الأذى أقبلوا إذن كما كانت العادة : ولن يكون أي واحد من أولئك الذين يفدون من توات مزوداً برسالة منكم مضطراً لدفع ضرائب لأن البلد بلدكم، مثلما كان لآبائكم من قبل**"[38]، إن القارئ لهذه الوثيقة بتمعن ليستشف مدى المكانة التي حظي بها التواتيون في أفريقيا، وكيف كان الملوك والأمراء، يقدمون لهم اكبر التحفيز والدعم لحثهم على المجيء للسودان.

الخاتمة : وفي ختام هذه المداخلة يمكن الخروج بمجموعة من النتائج لعل من بينها :

---

(36) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، **جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني**، مخطوط، د ر، خزانة كوسام ، ادرار، الجزائر، ص 50

(37) محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الاسلام**، مخطوط، د ر، خزانة كوسام ، ادرار، الجزائر، ص 49

(38) بول مارتي، **كنته الشرقيون**، تعريب محمد محمود ودّادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا، 1985م ص ص 34، 35.

. لعبت منطقة توات دورا كبيرا في تجارة القوافل الصحراوية، بوصفها إحدى مراكز العبور الأساسية، خاصة بعد سقوط مملكة غانا وقيام مملكة مالي، وتدحرج محور التجارة نحو وسط الصحراء.

. إن ما أشار إليه الرحالة من كثرة الأسواق والسلع بتوات، ورخص أثمانها، وانتظام قدوم وخروج القوافل منها، واجتماعهم بها، دليلا على التطور الاقتصادي، وازدهار النشاط التجاري بها، وتحولها من مجرد نقطة عبور في الصحراء إلى سوق تجارية مربحة يقصدها التجار من كل حدب وصوب.

. ربطت الطرق التجارية منطقة توات مع مختلف المراكز الحضارية في الشمال والجنوب والشرق والغرب مثل بجاية وتلمسان وفاس وورجلان وغدامس وتمبكتو وجني وقاو.

. اشتهرت في توات الكثير من الأسواق مثل : تمنطيط، عين صالح، تيكورارين، تيمي، تسابيت، بودة. ومن أهم السلع : التمر، التبغ، العبيد، الذهب، العاج، ريش النعام، الماشية، المخطوطات.

. لعبت تجارة القوافل دورا كبيرا في ازدهار المنطقة وتطورها في مختلف المجالات، وجعلت منها ملجأ للعلماء، التجار والحرفيين، ممن ضاقت بهم سبل العيش في أماكن أخرى، حيث استقروا في توات، وأسهموا في نهضتها وتطورها.

. أن الأهمية التجارية لتوات كانت إحدى الأسباب الرئيسة وراء تزايد الأطماع حولها، ومحاولة ضمها والسيطرة عليها من طرف البعض.

الملاحق: ملحق رقم 01.

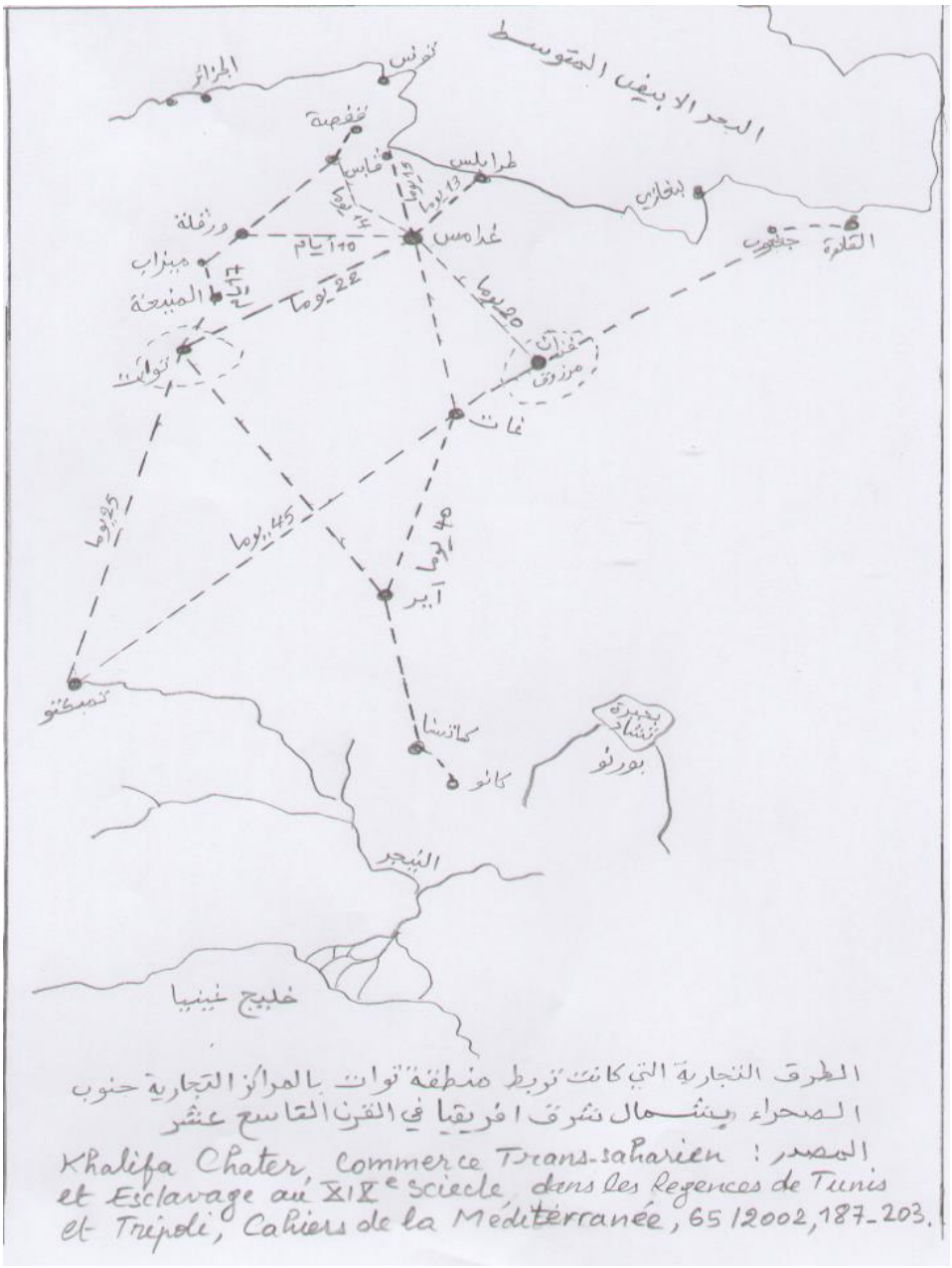

قائمة المصادر والمراجع :

1. أعفيف محمد، مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب الغربي توات في القرن 19، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، إشراف

الأستاذ حرمان عياش، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1982.

2. الأغواطي الحاج ابن الدين، رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية. ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية (لأن النسخة العربية الأصلية فقدت) أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2. ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م.

3. ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دار صادر، بيروت، 2001م.

4. بالحميسي مولاي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

5. التنيلاني عبد الرحمان بن إدريس: رحلة إلى الجزائر، مخطوط، د ر، خزانة تنيلان، ادرار، الجزائر.

6 . التمنطيطي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق، جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط، د ر، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر.

7 . التمنطيطي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق ا، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الاسلام، مخطوط، د ر، خزانة كوسام ، ادرار، الجزائر.

8 . جاجوا حسين: دور غدامس التجاري ما بين طرابلس والسودان الأوسط والغربي خلال1850/1881م، رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف د. عبد القادر زبادية، جامعة الجزائر،1981م.

9 . جعفري مبارك : العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، 2009.

10. حوتيه محمد : توات والقوافل التجارية، طريق القوافل: منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، مطابع عمار قرفي، باتنة الجزائر،2001م.

11. ابن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، 08 أجزاء، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، 2001م.

12. سعد الله فوزي: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، دار الأمة، الجزائر، 2004م.

13. الشريف محمد: الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي (ق 8 هـ/ 14 م) ملاحظات حول دورها في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء، مجلة التاريخ العربي : المرجع السابق، قسم 54.

14 . الطمار محمد: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

15. العربي إسماعيل: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م..

16 . بن عزوز فريدة : أبحاث تادِيوش لفيتسكي في فجر العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى، مجلة التاريخ العربي، مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد20، خريف 2001م.

17 . العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية 1661م – 1663م. ج 1. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006.

18 . فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين 18و19م، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بدون تاريخ.

19 . مارتي بول، كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ودّادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا، 1985م.

20 . مياسي إبراهيم : الاهتمام الفرنسي بالصحراء، طريق القوافل ، المرجع السابق.

21 . الوزان الحسن بن محمد (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م

22 . الونشريسي أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج2، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981م.

23 . نياني ج .ت وآخرون: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (إفريقيا من ق 12 إلى ق 16). اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م.

المصادر والمراجع الأجنبية :

24 _ Camps. G : Les Civilisations Préhistoriques de l’Afrique du Nord et du Sahara, Doin, Paris, 1974.

25_ Cid–El– Hadj–Abd al–Kader–Ben–Abou–Bekr at–Touaty : Le Sahara et le Soudan documents historiques et géographiques, traduits l'Arabe par M.L'Abbé Bargès, Paris, 1853.

26_ Deporter Victor Benjamin (1842–1893) : La Question du Touate au Sahara Algérien Gourara–Touat– Tidikelt, Imprimerie Fontana, Alger, 1891

27_ F.Elie de la Primaudaie, Le Commerce et la Navigation de l’Algérienne, Revue Algerienne et Coloniale, Juin 1860

28_ Fillias Achille : Dictionnaire des communes de l'Algérie…, Alger, 1903.

29_ Henri Barth(1821-1865) : Voyages et Découvertes dans l'Afrique Septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855, Paris, Bruxelles, 1863.

30_ James Richardson (1806-1851) : Routes du Sahara itinéraire dans l'intérieur du grand désert d'Afrique, imprimerie de L. Martinet, Paris, 1850.

31_ Khalifa Chater, Commerce Transsaharien et Esclavage au XIXe Siècle dans les Régences de Tunis et Tripoli, Cahiers de la Méditerranée , 65/2002, pp.187-203

32_ Oskar Lenz (1848-1925) : Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et Soudan, librairie hachette, Pari, 1887.

33 _ . Paul Solleillet, D'Alger à L' Oasis d'In-Salah, Rapport présenté à la chambre de commerce d' Alger, Jourdan, Alger,1875.

34 _ Reclus Élisée: Nouvelle Géographie universelle, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris,1886.

35 _ Robert Cornevin: Histoire de l'Afrique, Imprimerie Bussière, Paris,1962.